أول مدرسة مصرية فرنسية *

للدكتور زكى مبارك

هذه أول مرة تلقى فيها كلمة اللغة العربية ، بجانب كلمة اللغة الفرنسية ، فى هذا المعهد ؛ وذلك حق كسبته اللغة العربية منذ عامين ، منذ إنشاء القسم المصرى الذى تسود فيه اللغة العربية سيادة أصيلة ، ويدرس فيه الأدب العربى دراسة مفصلة ، على نحو ما يدرس فى أرقى المدارس المصرية

والقسم المصرى لم ينشأ بهذا المعهد لمجرد المجاملة ، وإنما هى خطة تعليمية قضى بها المنطق السليم ، وتوجيه صالح وفق إليه المشرفون على سياسة التعليم فى هذا المعهد الذى يجمع بين القديم والحديث .

فأنا أيها السادة أتكلم باسم أساتذة اللغة العربية فى القسم المصرى كما تكلم زميلى المسيو بارال باسم أساتذة اللغة الفرنسية فى القسم الفرنسى ، وكذلك يأخذ الأدب العربى مكانه فى تقاليد الحفلات السنوية منذ اليوم ، ويصير من حظ هذا المنبر أن يطرب فى كل عام وهو يستمع لغة القرآن .

وإنشاء القسم المصرى فى معهد الليسيه هو الذى أوحى إلىّ موضوع هذه الخطبة ، وهو الكلام عن أول مدرسة مصرية فرنسية فى التاريخ الحديث .

والمدرسة التى أعنيها هى البعثة التى أرسلها محمد على الكبير إلى فرنسا فى سنة ١٨٢٦ وقد كانت مؤلفة من اثنين وأربعين طالبا منهم ثلاثة من طلبة الأزهر الشريف .

وما سميت تلك البعثة مدرسة من باب المجاز فقد كانت مدرسة بالفعل ، وكذلك سماها المسيو جومار فى التقرير الذى نشره فى الجورنال أزياتيك فى سنة ١٨٢٨ .

ومن طريف التشابه أن أذكر أن المدرسة المصرية الأولى كانت مؤلفة من اثنين وأربعين طالبا ثم زاد طلبتها بعد ذلك وأن القسم المصرى فى الليسيه كان طلبته فى الأسبوع الأول اثنين وأربعين طالبا ثم تكاثر العدد وازدحمت الفصول .

ولعل تشابه الحظوظ فى هذه البداية يبشر بتشابه الحظوظ فى التسامى والتفوق . والله بالتوفيق كفيل .

سافرت البعثة من مصر فى يناير فوصلت إلى باريس فى يوليو ، وإنما كان السفر طويلا لأن المواصلات لم تكن سهلت إلى الحد الذى تعرفونه فى هذه الأيام ، وقد كانت تلك الرحلة المطولة سببا فى أن يتعرف الطلاب إلى الأقاليم الفرنسية ، ويدرسوا ما ائتلف وما اختلف من أخلاق الناس .

ولما استقر الطلبة فى باريس عاشوا تحت إشراف ثلاثة من الأساتذة المصريين ، وكان لأولئك الأساتذة الثلاثة واجبات دراسية ، ومن هذا ترون كيف كان المصريون يعرفون واجبهم فى ذلك الحين

كان الطلبة يقيمون أول الأمر مجتمعين فى بيت واحد يسمونه المركز ، ثم رؤى أن يتفرقوا فى المنازل الفرنسية ليتذوقوا الروح الفرنسى . فنظمت لهم لائحة مكونة من أربع عشرة مادة . وإليكم نصوص تلك المواد لتروا كيف كانت إدارة البعثة تفهم الواجبات التعليمية فى تلك العهود

المادة الأولى : (١) إن يوم الأحد المقرر لهم الخروج فيه يلزم أن يخرجوا من البنسيونات فى الساعة تسعة ويأتوا إلى البيت المركز من أول الأمر ويقدموا وقت الدخول ورقة معلمهم إلى الأفندى النوبتجى لأجل أن يعلم ساعة دخولهم فى البيت ، وبعد ذلك يذهبون إلى المواضع المعدة للفرجة بشرط أن يجتمع ثلاثة أو أربعة ، ثم يرجعون إلى البنسيونات فى أيام الصيف الساعة تسعة ، وفى أيام الشتاء الساعة ثمانية

المادة الثانية : إن من لم يمتثل لخصوص ما سبق يمنع الخروج من البنسيون بحسب الاقتضاء جمعة أو جمعتين

المادة الثالثة : إن كل من له شكاية من معلمه لا تسمع ولا تقبل حتى يكتبها فى ورقة . ولا تسمع إلا إذا كانت من جهة التعليم أو جهة أخرى يحصل له منها ضرر

---

* خطبة ألقيت فى حفلة توزيع الجوائز بمعهد الليسيه فرانسيه

(١) هذه اللائحة كتبت بقلم المغفور له الشيخ رفاعه بك الطهطاوى وقد احتفظنا بعبارته

المادة الرابعة : إن جميع الأفندية يمتحنون فى آخر كل شهر ليعرف ما حصلوه من العلوم فى هذا الشهر ويسألون عما يحتاجون إليه من الكتب والآلات ويكتب فى آخر كل شهر كسبهم وتحصيلهم وأفعالهم على الوجه الصحيح

المادة الخامسة : لو احتاجوا شيئاً من الكتب والآلات فى أثناء الشهر يطلبونه من معلمهم بورقة يكتبونها له ، ومعلمهم يخبر بذلك مسيو جومار ، فان رآه مناسباً يعطيهم ذلك بعد ما يخبر النوبتجى ، فان اشترى أحد شيئاً من غير إجازة يلزمه أن يدفع ثمنه من عنده

المادة السادسة : إنه بعد الامتحان بما ذكرنا فى المادة الرابعة إن استحق أحد من الأفندية الهدية (١) لنجابته تعطى له كتب وأدوات وسعة

المادة السابعة : فى محل التفرج أو الطريق لا ينبغى لأحد منهم أن يرتكب ما يخل بمروءته ، وهذا الأمر هو أهم الجميع وممنوع أشد المنع

المادة الثامنة : إن كل الأفندية الذين فى البنسيونات لا يدخلون البيت المركز إلا كل خمسة عشر يوماً مرة وهو يوم الأحد

المادة التاسعة : إن يوم الأحد الذى لا يأتون فيه إلى البيت يخرجون فيه مع أولاد الفرنساوية أو مع المعلمين إلى مواضع التفرج أو الرياضة أو ما ينبغى رؤيته ، وكذلك يوم الخميس أو يوم التعطيل (٢) ، إن لم يكن عليهم شغل فيذهبون مع من ذكر إلى المواضع المذكورة

المادة العاشرة : إذا خالف أحد هذا الترتيب يقابل بقدر مخالفته ، وإذا أظهر عدم الطاعة يحبس بالخشونة ، وإن كان يتشبث بأفعال غير لائقة وأطوار غير مرضية وجاءت تذكرة من معلمه تشهد عليه بقبح حاله وتبين عصيانه فمثل ما ذكر حضرة ولى النعم أفندينا فى القوانين التى أعطاها لنا نتشاور مع المحبين لحضرة أفندينا من أهالى هذه المدينة

(١) الهدية هي الجائزة فى التعبير الحديث

(٢) يوم التعطيل هو الآن يوم العطلة

وترسل فاعل القبح والعصيان بنفسه حالا إلى مصر من غير شك ولا شبهة .

المادة الثانية عشرة : إن جميع الأفندية يكونون فى البنسيونات فى هذا الترتيب على حد سواء ، وإن كان فى البنسيونات مائدتان احداهما للمعلمين والأخرى للتلاميذ فأفنديتنا يأكلون مع معلميهم .

المادة الثالثة عشرة : إن الأفندية المذكورين يلزمهم جميع ما ذكر من القوانين من غير امتياز ولسبب ذلك أعطينا كل واحد منهم صورة ذلك

المادة الرابعة عشرة : كل المواد السابقة هى خلاصة أفكارنا ونتيجة أذهاننا وأذهان الأعيان الذين وصلهم علينا حضرة أفندينا ، وبناء على ذلك كل أحد يلزمه أن يتبعها مع التنبيه لأجل تحصيل رضاء حضرة أفندينا ولى النعم . فمن لم يمتثل أو تعلل بشىء يجرى عليه ما هو مذكور فى قانون حضرة أفندينا ولى النعم حفظه الله

* * *

أيها السادة :

حدثتكم أن محمد على الكبير وكل رعاية تلك البعثة إلى المسيو جومار ، فاسمحوا لى أن أشير إلى بعض النواحى من أخلاق ذلكم المربى العظيم .

كان المسيو جومار يحرص أشد الحرص على تذكير الطلبة المصريين بانهم من شعب مجيد له فضل سابق على الانسانية فقد قال فى الخطبة التى ألقاها عليهم فى حفلة توزيع الجوائز فى اليوم الرابع من يوليه سنة ١٨٢٨ :

« أيها الشبان ، هذه أول مرة بعد وصولكم إلى فرنسا تعطى لكم أمام الجمهور المكافأة التى تستحقونها على عملكم الذى ثابرتم عليه ، وهذا اليوم يعد من أفضل أيام حياتكم ، والأكاليل التى ستتوج بها رءوسكم بعد هنيهة هى رمز فخر عظيم ، لأنكم أتيتم فى عاصمة العلوم والفنون ، وفى وسط مدينة تجمع بين جوانبها كل ما وجد من عناصر المدنية اليونانية وكل ما وجد من العناصر الفخمة فى طيبة ذات المائة باب .

أمامكم مناهل العلم فاغترفوا منها بكلتا يديكم ، وهذا هو

قبسه المضيء بأنواره أمام أعينكم . فاقتبسوا من فرنسا نور العقل الذى رفع أوربا على سائر أجزاء الدنيا ، وبذلك تردون إلى وطنكم منافع الشرائع والفنون التى ازدان بها عدة قرون فى الأزمان الماضية فمصر التى تنوبون عنها ستسترد بكم خواصها الأصلية ، وفرنسا التى تعلمكم وتهذبكم تنى ما عليها من الدين الذى للشرق على الغرب كله ،

ولم يقف المسيو جومار عند هذا الحد من التذكير بمجد مصر ، بل تحدث إلى الجورنال أزياتيك عن البعثة المصرية فأشار إلى ما أنشأ محمد على الكبير من المدارس فى وادى النيل فقال إنها ستكون عاملا لرد النور إلى وطنه الأصلى ، ذلك النور الذى يجب على كل من يعنى بنشر العلوم والمعارف والمدنية أن يرده إلى مهده الأصيل

***

ولعلكم تسألون أيها السادة عن عناية محمد على الكبير بتلك البعثة ، وجواب ذلك عند الشيخ رفاعة الطهطاوى ، فقد حدثنا مذكراته أن محمد على الكبير كان يبعث اليهم من وقت إلى آخر خطاباً يحضهم به على الجد والتحصيل ، وأثبت شاهداً لذلك نسوق منه طرفا للدلالة على مبلغ عناية ذلك الرجل العظيم بأولئك المبعوثين

قال طيب الله ثراه :

قدوة الأماثل الكرام الأفندية المقيمين فى باريس لتحصيل العلوم والفنون . زيد قدرهم

قد وصلتنا أخباركم الشهرية والجداول المكتوب فيها مدة تحصيلكم ، وكانت الجداول المشتملة على شغلكم ثلاثة أشهر مبهمة لم يفهم منها ما حصلتموه فى هذه المدة ، وما فهمنا منها شيئاً ، وأنتم فى مدينة مثل مدينة باريس التى هى منبع العلوم والفنون ، فقياسا على قلة شغلكم هذه المدة عرفنا عدم غيرتكم وتحصيلكم ، وهذا الأمر غمنا كثيراً ، فيا أفندية ما هو مأمولنا منكم ، فكان ينبغى لهذا الوقت ان كل واحد منكم يرسل لنا شيئاً من أثمار شغله وآثار مهارته ، فاذا لم تغيروا هذه البطالة بشدة الشغل والاجتهاد والغيرة وجئتم إلى مصر بعد قراءة بعض الكتب فظننتم أنكم مثلهم فى العلوم والفنون فان ظنكم باطل ، فعندنا ولله الحمد والمنة رفقاؤكم المتعلمون يشتغلون ويحصلون الشهرة فكيف تقابلونهم إذا جئتم بهذه الكيفية وتظهرون عليهم كمال العلوم والفنون ، فينبغى للانسان أن يتبصر فى عاقبة أمره وعلى العاقل أن لا يفوت الفرصة وأن يجنى ثمرة تعبه ...

فان أردتم أن تكسبوا رضاءنا فكل واحد منكم لا يفوت دقيقة واحدة من غير تحصيل العلوم والفنون ، الخ . الخ

ويحدثنا الشيخ رفاعة أن هذا الخطاب كان له فى أنفس الطلاب تأثير شديد ، وكان من نتائجه أن صاروا يكتبون إلى مصر فى كل شهر بياناً بما قرأوه وما تعلموه

***

أيها السادة . سمعتم اسم المسيو جومار فى هذه الخطبة غير مرة ، وعرفتم فضله على تلك البعثة ، فمن الخير أن نشير إلى أن محمد على حفظ له ذلك الجميل ، فأرسل إليه خطاب ثناء فى ١٠ يناير سنة ١٨٣٤ وترون ذلك الخطاب فى كتاب سمو الأمير عمر طوسون عن البعثات

أما بعد فقد كان المسيو جومار واثقاً كل الثقة وهو يلقى أول خطبة فى توزيع الجوائز على أول مدرسة مصرية ، وقد حققت الأيام ظنه فكان أولئك المبعوثون رسل علم وهداية وكانت معارفهم الأدبية والعلمية أساساً لما عرفت مصر من أصول التمدن الحديث.

وأنا أيها السادة فى أول خطبة لتوزيع الجوائز على طلبة القسم المصرى أثق بتلاميذى أكثر مما كان يثق المسيو جومار بتلاميذه ، وأعتقد أن القسم المصرى باللسيه سيخرج لكم نماذج جميلة من الشبان المثقفين الذين يعرفون واجبات الرجال

نحن نعرف تلاميذنا أيها السادة ، وأؤكد لكم أننا وضعنا فى صدورهم جذوة لن تخمد ، وهديناهم إلى نمير من المعارف لن ينضب ولن يغيض

والتلاميذ الذين يفرحون اليوم بتسلم الجوائز خليقون أن ينسوا إساءتنا إليهم أيام الدرس ، فقد أسرفنا فى إثقالهم بالواجبات وعاقبناهم أحياناً على هفوات صغيرة لا تستحق العقاب ، إنهم خليقون أن ينسوا عنفنا وقسوتنا فى معاملتهم فقد كنا على يقين من أن الأبوة تبيحنا حق التحكم فيهم ،